الفَنَك

مجموعة قصصية

الكتاب:

الفَنَك

تأليف:

عبد الزراق مربح

جميع الحقوق محفوظة – دار لوسيل 2019

الناشر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: /

الرقم الدولي (ردمك): / /

الطبعة الأولى: 2019

التنفيذ الطباعي:

دار لوسيل للنشر والتوزيع

الدوحة – قطر

64040, Doha,Qatar +974 44 17 73 11 +974 44 17 73 22 +974 50 80 98 89
@darlusail darlusail@darlusail.com

إهداء

إلى روح أبي وأمي الغالية

المقدمة

«لا يشرب اليأسُ إلا من المياه الراكدة»

هكذا علّمتَني الحياةُ..

لذلك كان على الإنسان أن يسعى بكل جِدٍّ وبتركيز عالٍ، بشكلٍ حثيثٍ في كل اتجاه؛ لأجل تحقيق ما يصبو إليه والوصول إلى ما تطمح إليه نفسه، وتحقيق كل أحلامه وتطلُّعاته لمستقبل زاهرٍ ومُفيدٍ لشخصِه وعائلتِه وبلادِه وللإنسانيةِ جمعاءَ.

ولكن...

هناك فرق بين الشخص الذي يُحرّكه الطموح، ويرفعُ التحدي لنيل العُلا، ويواجه الصعاب بعَين الحكمةِ والتَبَصّر، مُتسلحاً بالصبر، وبين من يُحرّكه الطمعُ في الوصول إلى هدفه.

هي ثلاثُ قصص، كل واحدةٍ منها لها دلالتُها الرمزية.

إذن دعَونا نكتشِف ما تقولُه هذه القصصُ الثلاثُ عن هؤلاء الأشخاص، وكيف كان قدرُهم؟

قصة
صفقةُ الفَنَكِ

بلا توقفٍ، شقّت عقاربُ الزمنِ طريقَها في حياة شريف تصولُ وتجولُ فيها وتعبثُ بها، تدورُ وتدورُ في رَحَاها، لتأخذَ منه أعزّ ما يملك، وقتَه الثمينَ، وتسْحقُ شبابه فتذْرُوه رياحُ الشقاء كالهباء المنْثور، وتهوي به إلى أرذَل العُمُر، وها هو الآن يدقّ أبوابَ الستين بعد قضائه زهرةَ عمره في الوظيفة...

لم يُصدّق الرجلُ حتى الآن كيف أنه سمح لوهم الوظيفة بافتراس أحلامِه الكبيرة، ويتيه هو معها داخل الدهاليز المظلمة المُشْبعة بالرُّطوبة التي تنبعثُ من كل زاوية حتى أصبح الصديدُ سيدَ المكان بلا مُنازعٍ، كان يظنُّ بأنه سيتخلّص من روتين الوظيفةِ في بداية الطريق أو وسطه، في أسوأ الأحوال، لكن كل ذلك لم يحدث، بل واصل شريف مسيرته المهنية كاملةً غير منقوصةٍ؛ فقد مكثَ في الوظيفة إلى آخر ساعة ودقيقة، وحصدتِ الأيامُ والليالي الحالكات كل بريقِ أحلامِه الجميلةِ، ومضَت من أمامه كالسراب دون أن يُنجز شيئاً مذكوراً وذا قيمة كبيرة، وتركتَه مُتحسراً مكسورَ

الخاطرِ... نعم كيف لا ينكسرُ خاطرُه فهو لم يتمكّن من السفر في حياته، ولو لمدة أسبوع، بل ولو ليوم واحد فقط؟!

كان ينهضُ كل صباح يواجِهُ زحمةَ السيرِ وانعدام وسيلة تقلّه إلى عمله أصلاً، هذا فضلاً عن جيبِه الفارغِ على الدوام، وبطنِه الخاويةِ طوال الوقت، ولباسِه القديم الطراز... ذلك اللباسُ الذي لم يستطع أن يغيّره منذ عام، فصغارُه أولى منه باللباس، وزوجتُه كذلك، وما تبقّى من بقشيش كان يدّخره لعلاج أحد أفراد عائلته عند المرض، ولا يسعُه التفكير مطلقاً في ابتياع لباس جديد، حتى يبدو في أبهى حُلّة أمام الناس، كان يُؤمن بأنَّ الأهل أولى في كل شيء حتى إنه كان لا يأكل لحماً خارج البيت، وإن فعل ذلك كان يُحضر حصةً منه لأولادِه وزوجتِه، وإلا فإن ضميرَه سوف يُؤَنّبُه على فِعْلته تلك.

ولكن بقي بصيص أمل يلوحُ في الأفق... فأخيراً ها قد افتتح شريف مطعمه الجميل، حُلْم حياته الأكبر، وودّع معه إلى الأبد حياةَ الفقر، وتلك

المأساةَ، وذلك الواقعَ البائسَ الذي تنطقُ أيامُه ولياليه بكل المعاناةِ والألمِ، وها هو ذا يُحقق حُلمَه وطموحَه المُنتظَر بعد حصوله مؤخراً على التقاعد من وظيفته المُملة، نعم لقد كانت وظيفةً مُملّةً بحقٍّ، والشيء الوحيد الذي دفع به للبقاء فيها تلك المزايا والهدايا التي كان يتحصّل عليها في كل مرة من طرف زبائن الشركة التي يعمل فيها؛ لقاء تسهيل حُصولهم على طلبتاهم قبل الآخرين، وهذا بحكم ترقية حصل عليها من طرف شركة الإسمنت لمنصب المسؤول التجاري، قبل إحالته إلى التقاعد ببضع سنين، واستطاع بفضل جمعه تلك النقودَ التي نالها لقاءَ الخدماتِ التي كان يُقدّمها للزبائن، بأن يجمعَ مبلغاً لا بأس به من المال كان كافياً لافتتاح مطعمه.

كان زبائن الشركة يدعونه بـ «الثعلب»؛ فقد كان الرجل ماكراً داهية زمانه؛ إذ كان يُخلّصُهم من كل العراقيل التي تعترض طريقهم بلمح البصر، وكان الرجلُ كذلك فناناً في التحايل على نظام توزيع الحصص، ويؤمن بأن ذلك من النباهة

والفِطنة التي يجب أن يتسلّح بها كلُّ موظفٍ عبدٍ للوظيفة، بل عبد لذلك العار الذي لن يُطعم الأطفال الصغار ولا يُسمن ولا يُغني من جوع في الليل، كما في النهار.

كان يتعجب... كيف أنه مسؤول عن الملايين وراتبُهُ لا يكفيه لقضاء حوائجه لمدة أسبوع واحد فقط، فما بالك بمواجهة مصاريف شهر بأكمله، ولكنّ حالتَه قد تغيّرت شيئاً فشيئاً بعد ترقيته إلى منصبه الجديد، فقد أصبح يختلط كثيراً بأصحاب المال والأعمال، ودفَعَه فضوله إلى اكتشاف ذلك العالم، ولِمَ لا الولوجُ إليه من بابه الواسع، وتطليق حياة البؤس والحرمان إلى الأبد؟

بدأت الأعمالُ في المطعم الجديد في النمو والازدهار، وبدأ شريف في التقاط أولى الثمار، ثمارِ نجاحِه الباهرِ، كيف به لا يلتقطُها بعد بذله كلَّ العزم والإصرار وها هو ذا يتخذ قرارَه الذي لا رجعة فيه:

«منذ اليوم لا أريد أن يدخل مطعمي إلا عِلْية القوم، فهنا لا مكان للفقراء! حاشا لله ليس تكبّراً

منّي، ولكن لا يليقُ بمَن يقصدُ مطعَمنا الفاخر أن يأتي بمظهر لا يليقُ! هذا فضلاً عن أنه لا يمُكن لمن لا يملِك الكثير من النقود أن يحتمل جيبُه فاتورة الأكل والبلع لدينا، فالأطباق التي نقدّمها هنا حارة جداً ودسمة وغالية الثمن كذلك، شعارُنا هنا: لا يَنال الغالي إلا الغالي!».

لم يَعُد يريد شريف أن تصادف عينُه هؤلاءِ الفقراءِ في مطعمه، فهم يذكّرونه بنفسه! وكيف كان في السابق يتناول يومياً طبق اللوبياء، والعدس، وغيره من مأكولات البُسطاء، وهو لا يريد أن تتذكر بطنُه كلّ تلك الأطباق الرهيبة الخاصة بالفقراء... نعم فشريف أصبح اليوم في مصاف الأغنياء، ومنذ اليوم أصبح مطعمُهُ يقدّم الشواء على الجمر لأجود أنواع اللحوم، ويتوفر كذلك على مختلف أطباق فواكه البحر النادرة المحلية منها وحتى تلك المستوردة من البلاد الإسكندنافية!

يشير إلى أحد العمال...

-«أنت... يا ولد اذهب وأحضر اللافتة الجديدة التي ستُزيّن واجهة المطعم.

نعم... فلتعلموا أنني قد غيّرت تسمية المطعم إلى الأبد. فإلى اليوم لم يستسغ خاطري تسميته السابقة «مطعم الشعب» كان تسرّعاً منّي وخطأً جسيماً لا يُغتفر ارتكبتُه في بدايتي الأولى في هذا الميدان، وذلك من فرْط الحماس، وظنَّ الناسُ إِثر ذلك أن مطعمي يُقدّم أطباقاً شعبية رخيصة، وصار مقصداً للمتسولين ولكل من هبّ ودبّ من كل حَدَب وصَوْب... لا لا لن أرضى بذلك... منذ اليوم اسم مطعمي يصبح «مطعم الفاخر»، أليس وقع الاسم جميلاً على السامعين، ورنينُ لحنِهِ العذبُ تَطربُ له القلوب قبل الآذان؟

كان الاسم الجديد وحده كافياً لطرد كل فقير تُسوّل له نفسه الاقتراب من مطعم شريف والنيل من شرفه العالي ومقامه الكبير المُعَد لأولي الشأن من القوم.

حتى بلغ به الأمرُ أن منع كلّ من لا يرتدي بذْلةً بربطة العنق من وُلُوج المطعم، رُغْم أنه يقع

في منطقة تعجُّ بالسياحِ بحُكم قُربه من شاطئ البحر، وأغلبُ من يقصده يرتدي شورتاً قصيراً أو لباساً رياضياً في أحسن الأحوال... لكنه أصر على ذلك حتى يُحافظ مطعمُه على فخامته، ويبقى في الصدارة دوماً، أما بخصوص زبائِنه من النساء، فلا حرج أن تأتي المرأة إلى المطعم بلباس السباحة، فلا يجوز لنا أن نخنقَ المرأةَ -حسبه- ونحشرَ أُنُوفَنا في حريتها المَصونَةِ، ونقررَ بدَلاً منها ماذا تلبسُ، أولسنا أصلاً نعيش في بلد ديمقراطي؟!

بلغ صدى نجاحِه الآفاق، وأصبح مطعمُه حديث العام والخاص في كل البلاد، بما يُعدّه من أطباق شهية أصبحت تنافسُ أشهر الأكلات العالمية، وصار شريف يرقُص زهْواً وطرباً بتهافت كبار القوم على الحجز في مطعم «الفاخر» حتى ربطه بزبائنه الكبار علاقات صداقةٍ قويةٌ ومتينةٌ، لا تُشوبها شائبةٌ، وتمكّن بفضل ذلك في النهاية من قضاء بعضِ مصالحه التي لا نهايةَ ولا شاطئَ لها تستقرُّ فيه.

يصيح شريف:

«أنت يا عازف الكَمَان... هيا أتحِفنا...لا أريدُ أن تصدر الموسيقى من كمانك، بل أريد منه أن يبكي!».

وها هو ذا يستقبلُ زبونَه المميّزَ الرجلَ الأسمرَ الأنيقَ الذي يأتي كل يوم في حُلّة أبهى من سابقتها، والذي لا يعرفُ عنه شيئاً حتى اسمه كان يجهلُه! إذ كان الكل يناديه بالسيد «فوكس».. هكذا دون زيادة أو نقصان، وكان يُتقنُ العديد من اللغات حتى الصينية! لكن شريف لا يريدُ أن يعرف مَن يكون؟ أو من أين أتى؟ فالرجل لا يبخل بنقوده على المطعم، وعلى جيب شريف... يا رجل... هل يمكن أن تسأل من يعطيك النقود من أين أتيتَ بها؟ أو أن تقول له مثلاً: لا أريد نقودَك فذلك كثيرٌ على جيبي! هذا غير معقول ولا يُقبَل بتاتاً!

-مرحباً بك يا سيد فوكس... أنا هنا في خدمتك... طلباتك أوامر!

- تعال... تعال... يا صديقي شريف فقد اشتقتُ إليك، وأريد أن أحدّثَك قليلاً فيما حصل معي في بيروت الأسبوع الماضي.

-بكل دهشة يجيبه شريف:

-هل كُنت في لبنان حقاً؟

-نعم يا رجل... وماذا أحكي لك عن ذلك البلدِ الجميلِ، وتلك المطاعمِ الراقيةِ في بيروت... إنهم يقدمون أكلاتٍ لذيذةً ومميزةً جداً... يا رجل تصوّر ماذا يطلقون على «المعدنوس»هناك؟

-كيف يُسمّونه يا سيد فوكس... فقد أثَرت فضولي؟

-يلفِظُونه «البأدونس» هكذا... نعم هكذا يا رجل... تخيّل لم أكن أعرف بأن «المعدنوس» يملكُ اسماً جميلاً ورقيقاً مثل ذلك الاسم!

هذا دون ذكر ذلك الكعك اللذيذ المحشوّ بالفواكه الذي يُطلقون عليه حلوى الدراق... صدقني يا شريف عندما تقومُ بقضم قطعة منه فستذوب كل حواسك مع ذوبانِ كل جزء من تلك الحلوى الخرافية داخل فمك... يا رجلُ أنا لا أصدّق إلى الآن بأن تلك الحلوى موجودةٌ بالفعل في عالمنا، إنها أسطورة بحق جاءت من الجنة، حتى يقومَ

بالتهامِها أناسٌ محظوظون مثلي، ياه كم تتوقُ نفسي إلى العودة إلى هناك، والتهام ألذ الأطعمة وأفخر الأطباق...

دعني... دعني أكمل لك يا شريف، فما زال في جعبتي الكثير...

فهناك شيء آخر... هل تعرف بأنهم يقيمون العديد من الأمسيات الفكاهية مع البهلوان «قرقميش أغا»... إنه ممتعٌ حقّاً، خاصة عندما يكون برفقة «شعشبونة المجنونة»!

بكل انبهار يردُّ عليه شريف:

-يا لك من محظوظ يا سيد فوكس

- شكراً... شكراً لك يا صديقي...

وهل تريدُ أن أحدّثك عما حصل معي على شاطئ البحر؟

- نعم تفضل...

-البارحة... البارحة فقط يا شريف، عندما كنت أسبح هناك في شاطئ البحر المقابل لمطعمك أراد

أحدهم أن يستخِفّ بي، ويهزأ بشخصي أمام كل العالم الموجود هناك مع أصدقائه المغفلين... هل تعلم ما الذي قام بفعله؟

-لا.. لا أعلم!

-لقد قام برسم وجه حمار على قميصي، وانتظر خروجي من البحر هو وأصدقاؤه الملاعين، ليشبعوا ضحكاً عليّ! وماذا فعلتُ أنا؟ لقد أمسكتُ بقميصي، ونظرتُ فيهم مليّاً ثم خاطبتُهم قائلاً: مَن مسحَ وجهَهُ القبيحَ على قميصي هذا؟! ها ها ها....

-ههه.. ها ها ها إنك خبيث كبير يا سيد فوكس... أنت لا تصدّق!

دعني أزيدُك واحدة أخرى يا شريف... ففي إحدى المرات قمتُ باستقلال قطار الضاحية الشرقية، وقد أحضر أحدهم كلبَه المخيف معنا فنهرته قائلاً: أبعد كلبك هذا عني! لكن اللئيم أجابني بأن كلبه ذاك أفضل من بعض الأشخاص! تصوّر... اللعينُ كان يقصدني أنا! لكن هل تعرفُ

بماذا أجبتُه؟ لقد نظرتُ إلى ذلك الكلبِ وتوجهتُ بكلامي إليه... لقد قمتُ بمخاطبة الكلب بدل ذلك الرجل! قلتُ له: هل تعلمُ أيها الكلبُ الجميلُ أنّك أفضلُ من صاحبك؟!

هنا ينفجر شريف بقهقهات قوية... كفى... كفى يا فوكس، لقد اكتفيت اليوم لا أريد أن أسمع المزيد منك، إنك غريب الأطوار حقاً، وتملك روح دُعابة ليس لها مثيل!

وبعد مضي أسبوع...

-مرحى... مرحى بعودتك يا سيد فوكس.. أنا هنا في خدمتك طلباتك أوامر..

-لا لا سيد شريف فأنا أنتظر أن يوافيني أحدهم على الغداء، وعندما يصل سوف أقوم بطلب الطعام... شكراً لك ولضيافتك الكريمة.

كان السيد فوكس لبقاً للغاية في الحديث، كما في المعاملة أيضاً، فهي راقية جداً ولا ينطق لسانُه إلا بكلمات متناسقة في المبنى والمعنى، تضفي رونقاً خاصاً على المكان، وروعة خالصة، خاصة

لما يقوم بسرد مغامراته التي لا تنتهي بأسلوبه الشيِّق والجذاب جداً، والذي تخشع له الآذان، وتسرحُ معه المخيلة في ذهول ودهشة لا تضاهى.

أيقن شريف بذلك أن هذا الرجل، أي السيد فوكس، هو أيقُونة المطعم، بل هو جوهرة نادرة، وهو يمُثّل نموذج الزبائن الذين كان يبحث عنهم، ويطمحُ إلى أن يصادقهم، فهو يتمتعُ باللبَاقة في الحديث، والاحترام في المعاملة، ولا يبخل في صرف نُقوده على طلب أطباق مطعم شريف الشهية والغالية... أجل هو ليس كهؤلاء الذين كانوا يقصدون مطعمه منذ مدة بعيدة، هؤلاء الفقراء والمتسوّلون فقد كانوا يأتون في هيئة لا تليقُ بمقامه.

وأخيراً ها قد جاء الضيفُ المُنتظَر، وقام بموافاة السيد فوكس إلى المائدة...

من هو يا تُرى؟ وما العلاقةُ التي تربطه بالسيد فوكس؟

كانت سحابة من الأسئلة التي خالَجَت صدر

شريف، ولم يستطع طردها، ففوكس كان دوماً يأتي للمطعم وحده، وما هذا الطارئ الذي حصل حتى أتت تلك الفتاة الجميلةُ وجلست معه؟ هل هي ابنتُه أم سكرتيرتُه أو ربما قد تكون زوجتَه؟! مَن يدري؟

نعم.. فكل شيء ممكن مع رجل غامض كالسيد فوكس، هذا قد يُباغتُنا بشيء جديد لم نأْلَفه ولم نسمعْ به مطلقاً في حياتنا، فهو عفريت بحق، وحياتُه مليئةٌ بالصّخب، ليس مثل حياتنا الرتيبة، وأيامنا الكئيبة التي لا تُطَاق... نعم فهاتفه لم يتوقف عن الرنين يوماً، فربما يكون صاحب شركة كبيرة، ونحن لا نعلم بالأمر، وهو يأتي إلى المطعم خِلْسة دون أن يكشفَ لنا عن هُويتِه الحقيقيّة حتى يتخلّص من بعض الضغط في العمل... ربما مَن يدري؟

ينادي على شريف:

-تعال... تعال يا رجل حتى أُعرّفكَ على صديقتي من وزارة السكن.

تهلّلَ وجه شريف، واستبشر خيراً بالوافد الجديد على مطعمه صديقة السيد فوكس، فقد تنفعه معرفتها في الأيام المقبلة، وقد تدبّر له شقة في المدينة الجديدة...

-يا شريف... يا صديقي أعرف في ما تفكر! لا تتردد يا رجل فإذا كنت تريد الحصول على سكن فقُم بمنح الآنسة التي برفقتي فورًا خمسة ملايين، طبعًا هذا برفقة الملف اللازم لذلك، وستحصلُ على السكن في برنامج التوزيع المقبل... ولا تَخفْ أبداً فهذه المرأة ضَلِيعة في الاحتيال على برنامج توزيع السكنات، ولن يعرفوا أبداً بأنك تملك مطعماً، فأنت تعلمُ بأنك لن تحصل على السكن إن هم علموا بالأمر، فتلك السكناتُ موجهة للفقراء من العامة، الملاعين لم يمنحوك السكن عندما كنت محتاجاً، والآن يحرمونك منه بعد أن أصبحت غنيّاً، ولكن هيهات فصديقك فوكس هنا لمساعدتك...

تمت الصفقةُ بسلام، وذهب كل واحد في حال سبيله...

وفي اليوم التالي...

نادى السيد فوكس شريف لموافاته إلى طاولته المُطلة على واجهة البحر، ذلك البحر الأزرق العظيم الذي أخذ في إرسال نسائِمِه المنعشة التي تَلِجُ من النافذة المفتوحة قليلاً، فيرفرف غطاء الطاولة الناصع البياض، ويستنشق السيد فوكس من عبق ذلك الهواء العليل حتى الثمالة...

-يا شريف... يا صديقي! هل رأيتَ كيف أستنشق هذا الهواء اللذيذ وأتنفسه بكل يسر؟!

-يجيب شريف بعد أن عقدت الدهشة لسانه: بلى، لقد رأيتُكَ يا سيد فوكس وأنت تفعل ذلك!

كيف لا يندهشُ الرجل، فشريف لم يعتَد حديثه معه هكذا، وبتلك الطريقة الشاعرية، السيد فوكس هذا كان دائماً يُكلّمه عن المال الوفير، وكيف كان يقوم بصرفه هنا وهناك بكل بذخ في المطاعم والملاهي المختلفة، وأشياء أخرى لا حصر لها، لكن دون أن يُخبره يوماً عن مصدره، أو يكشف له من أين يأتي به في كل مرة، وما هو عمله بالضبط حتى يجني كل تلك الأموال الطائلة، كان ذلك سرُّه الكبير الذي لا يعلمُ به أي أحد، وها هو اليوم يكلّمه

عن الهواء! أصلاً وما دخل شريف بالهواء وبما يتنفس فوكس هذا؟ فهو يريد ماله فقط، ولأجل ذلك فقط قام بمجاراته في حديثه الممل هذه المرة على غير العادة، فكلامه في السابق لم يكن يخلو أبداً من الإثارة التي تحبس الأنفاس.

-شريف... يا صديقي.

-ماذا يا سيد فوكس؟

-هل تعلم يا رجل بأن هناك من لا يمُكنه التنفسَ بيُسر مثلما أفعل أنا هنا أمامك؟!

-أكيد هو في عداد الموتى!

-لا.. لا يا رجل... وتلك هي المصيبةُ السوداءُ التي دخلت حياتي على حين غِرّة ودمّرت سعادتي، وستخطفُ مني أعزّ ما أملك في هذا الوجود... إنها زوجتي العزيزة، فقد أخبرني الطبيب مساء البارحة بأنها لا تستطيع التنفس، كما يجب، وتكاد تختنق، ولم يتبقَ من حياتها إلا أشهر معدودة، هذا إن لم تكن مجرد أسابيع قليلة، وتغادر هذه الدنيا إلى الأبد، ومن غير رَجْعة، وأنا هنا كما ترى أقبعُ

مكتوفَ الأيدي، لا حول لي ولا قوة.

-وأموالك ما الفائدةُ منها؟... لماذا لا تعالجها بها، فأنت تملك المال الوفير، ويمكنك أن تذهب بزوجتك إلى الخارج، وتعالجها في أرقى مستشفى هناك؟

-يا شريف... يا شريف... ما تنفكُّ تذكر المال في كل مرة، ليست المشكلة في المال، بل في طلب الطبيب الغريب والمحيّر، والذي لم أصادف مثله في حياتي.

- وما هذا الطلب الغريب والمحيّر الذي حوّل حالك هكذا؟

- هل تعلم أن الطبيب طلب منّي أن آتيه بكبد ثعلب الصحراء (الفنك) فعصارتُه هي العلاجُ الوحيدُ لزوجتي، وهو أملي الأخير في علاجها ونجاتها من الموت المُحقق الذي يتربص بها... آه... آه... فزوجتي المسكينة تحتضر، وقلبي يعتصرُ ألماً لعجزي عن إيجاد ذلك الثعلب، ومن أين آتيه أنا بكبد الفنك، فمنذ عشرات السنين لم يستطع

أحد اصطياده، أو حتى تمكّن من رؤيته، ولو من بعيد، فهو نادر الظهور. هل تعلم يا صديقي بأني قصدْتُ حديقة الحيوان ليبيعوا لي واحداً، لكنني لم أجد له أثراً عندهم... اييه... فقد مات آخر واحد كانوا يحوزونه منذ ما يربو عن العام أو يزيد...

-يا لطيف... إنني أشفقُ عليك وعلى زوجتك يا صديقي، فأنت تواجه مشكلة عويصةً وصعبةَ الحل يا رجل، بل هي تستعصي على حكومة بأكملها أن تجد مخرجاً لك ولزوجتِك المسكينة.

-إيه.. إيه.. لا يحسّ بألم الجمر إلا من اكتوى به!

شريف... أريدك أن تساعدني، وأن تجد لي من يمُكنه اصطياد الفنك وإحضاره لي، ولك مني مليار كامل!

يجيبه شريف بكل ذهول:

-هل جُنِنت يا رجل؟! كيف بك تشتري ثعلباً صغيراً بمليار؟!

إنه مبلغ كبير وغير معقول، حتى أن مطعمي

هذا لا تبلغ قيمتُه مئتي مليون فما بالك بهذا الرقم الفلكي؟ ... إنه مليار... مليار بأكمله!

-بل انظر إلى شعار مطعمك «لا ينال الغالي إلا الغالي»، وحياة زوجتي غالية عندي أغلى من كل الدنيا؛ إنها حبُّ حياتي يا رجل، كان حبّاً جارفاً أزاح عن حياتي الكآبة والرتابة، كانت البشرى السارة التي أدخلت الفرح إلى قلبي بعد طول انتظار... يا رجل... لقد عشْتُ معها أحلى سنين العمر، ولا مناصَ من بذلِ الغالي والنفيس في سبيل إنقاذِها، وهاك منّي خمسة ملايين مقدماً كي تجتهد في البحث عن ذلك الثعلب اللعين!

لَمِعَت عينا شريف طمعاً بقضْمه للقمة السائغة التي أتت برجليها إلى فمّه، وقام بكل لهفة بحمل رُزْمة النقود تلك، ودون أن يتفطن عماله لما يدور بعيداً عن أعينهم في الخفاء، قام بإخفائها في جيبه بحركة رشيقة منه من تحت الطاولة، وارتسمت على مُحيّاه ابتسامةٌ عريضةٌ فرحاً بصفقة العمر التي عقدها للتوِّ مع السيد فوكس، وكيف ستكون هذه الصفقةُ المُربحةُ الطريقَ إلى الثراء وفتحِه

مطعماً آخر، بل ربما سلسلة مطاعم كبرى في البلد، وفي الخارج كذلك، ولِمَ لا؟ هذا طبعاً بعد أن يجتهد في القبض على الثعلب الصغير. والعجيب في الأمر، والذي أحدث فرحة عارمة في قلب شريف، هو استرداده مبلغ الخمسة ملايين التي منحها لموظفة وزارة السكن في اليوم الذي سبق، وهذا بفضل الصفقة الجديدة التي قام بإبرامها للتوّ مع السيد فوكس الخاصة بالقبض على «الفنك»... نعم سوف أحصل على سكن من دون مقابل، فربما فوكس هذا يكون سمسار عقارات كبيراً، بما أنه يعرف موظفة وزارة السكن، الحمد لله فها هي بضاعتي قد رُدَّت إليّ دون أن أخسر ديناراً... كم أنت كريم يا سيد فوكس!

لكن السيد فوكس كعادته أبى إلا أن يُضفِي جوّاً من المرح على تلك الجلسةِ... هذه المرةُ سأقصُّ عليك حكايةً من الأرشيف حدثت لي العام الماضي أثناء ركوبي الطائرة مُتوجهاً إلى كوالالمبور.

-هل قُلتَ كوالالمبور؟!

-نعم... كانت رحلة لتسوية بعض الأعمال

العالقة هناك ولم تكن رحلة سياحية، وقد حدث معي شيء عجيب على متن تلك الطائرة، ولا يخطرُ على بالٍ، فعند صعودي على متنها اكتشفتُ أن أحدهم قد استولى على مكاني في الدرجة الأولى المخصصة لرجال الأعمال، ولم تفلح كل محاولات طاقم الطائرة في إقناعه عن العدول عن قراره وإقناعه بالتوجه إلى مكانه في الدرجة الاقتصادية، بل زاد إصراره وتمسّك بما يقوم به! العنيد! لكني ذهبتُ إليه وهَمَست في أذنه ببضع كلمات، فإذا به يفرّ مذعورًا، ويتخلّى عن عناده، حتى إن كل الحاضرين تعجبوا من الأمر...

-وماذا قلت له يا سيد فوكس؟

-ها ها ها... سألتُه إلى أين تتجه؟ فقال كوالالمبور! فقلت له هل تعلم أن ذلك المقعد الذي تجلس عليه مُتوجّهٌ إلى مقديشو!

-ها ها ها إنك لعينٌ يا فوكس... توقف... توقف أرجوك فأنا مريض بالقلب ولا أريد أن تقتلني؟!

****

في رحلة البحث عن الثعلب أخذ شريف يفتّشُ في كل الأرجاء والأنحاء، ويقوم بالعديد من السفريات إلى الصحراء الكبرى، والجبال، يصولُ ويجُولُ في شِعَابها، ويعبرُ بحْرَ رِمالِها لاهثاً وراء القبض على ذلك «الفَنَك» الذي سيدرُّ عليه مالاً وفيراً، هذا طبعاً بعد أن يَغْدق عليه السيد فوكس بالمليار، ويُحَقِق حُلْمَه المنشودَ، لكنه كان في كل مرة يرجعُ خائباً، فلم يَعُد للفَنَك وجود... ربما يكون قد انقرض من على وجه الدنيا ونحن لا نعلم بالأمر إلى هذه اللحظة... يتساءل: كم أنت غريبة يا دنيا! إذ كيف أصبح الثعلبُ اللعينُ يساوي الملايين، وما هذه المادةُ العجيبةُ التي يحتويها كبد الثعلب، والتي تداوي أخطر الأمراض وأفتكها على حياة البشر... أصلاً وما شأني أنا بتلك المادة وما تفعله أو لا تفعله، فهدفي واضحٌ وضوحَ الشمسِ في النهار، ألا وهو الإمساكُ بالثعلب وقبضُ المليار! أم يعتقد السيد فوكس هذا بأني أقوم بكل هذا لأجل عيون زوجتِه؟ هه... الغبي دعه يظن ذلك هه ها... ها... ها... إنه مغفّلٌ كبيرٌ حقّاً!

يواصل شريف بكل عزمٍ وإصرار شقَّ طريقه صوبَ القبض على ذلك الثعلب الماكر الذي يَختبئُ بعيداً عن ناظره، لكن هيهات سيأتي يومُك أيها الماكرُ العفريتُ طال الزمنُ أو قصُرَ، فقد عوّل شريف على الإمساك بك حياً تُرزَق أو مَيتاً تزهَق، سيُطاردُك في البرّ كما في البحر، مرتِ الأيامُ والأسابيعُ، لكنّ محاولاتَه العديدةَ وصَوَلاته المديدةَ لم تأتِ بالجديدِ المطلوبِ والمالِ المرْغُوبِ وعاد خائباً إلى مطعمه وكلّه حزنٌ على تَفويتِه فرصةَ الثراء التي أتت إليه على طبق من ذهب، ولم يعرف السبيل إلى استغلالها كما يجب.

وهو في مطعمه جالس على أريكته الوثيرة، شاردَ الذّهن، يقْضمُ أطرافَ أصابعِه ببقايا أسنانه المتهالكة التي تهاوى أغلبها بفعل الزمن، حتى إنها لم تعد تفي بالغرض المطلوب منها في مجال قضم الأصابع! فجأة... يدخل على المطعم رجل يرتدي ثياباً باليةً، وتصْدرُ منه رائحةً نَتِنةً كأنه غادر لتوّه من الإسطبل، ودخل مباشرة إلى هناك...

استوقفه شريف....

-هاي... أنت... ما الذي دهاك؟ هل أنت معتوهٌ، وجِئت تجرّب حظّك عندنا بما قد تناله من الطعام اللذيذ، هيا انصرف من عندنا، فنحن لا نُطعِمُ الحُثالةَ هنا... وما هذه الرائحةُ النتِنَةُ التي تصدُرُ منك؟!

يا لذوقك الفظيع... هيا اخرج فوراً... ألم تقرأ اللافتة التي في الخارج إن كنت جاهلاً سأعلّمك! إنها تقول: «مطعم الفاخر» كيف تتجرأُ وتدخل بتلك الملابس الرثة، وتلطخُ مطعمنا الفخم بنجاستك القذرة... هيا انصرف فوراً قبل أن تنال جزاءك...

-ولكن يا سيدي أنا لا أريدُ سوى أن تُعطيني بعض الخبز اليابس، حتى أطعم خرافي وثعلبي الصغير.

-ماذا... ماذا... ماذا... هيا أَعِد ما قلتَ؟ هل قلت إنك تملك ثعلباً، أم إن سمعي قد خانني هذه المرة؟!

-نعم... بكل تأكيد فأنا أملك ثعلباً وأي ثعلب يا سيدي!

-ماذا تقصد؟ أرجوك لا تقل لي إنه من صنف الفَنَك!

-بكل تأكيد... ولكن كيف علمت بالأمر؟ ومن الذي أخبرك بذلك؟

-إنَّه الحدس يا حبيبي... الحدس والحظ الذي ابتسم لي أخيراً

هه... بكم تبيعني ذلك الثعلب؟

-لا لا أبداً... من قال إنني سأبيعُك ثعلبي العزيز... إنه ثعلب غالٍ على قلبي، ولن أبيعه لك، حتى ولو منحتني تسعين مليوناً كاملة!

-ماذا... ماذا؟ ثعلب صغير بتسعين مليوناً!... لقد أضحكتني يا هذا وأنا لا أستطيع الضحك.

-أيها الخبيث هل تظُنني مغفلاً حتى لا أعرف قيمة ثعلبي؟ هو يساوي الملايين يا هذا، فقد سبق لي أن بِعتُ أحدهم ثعلباً آخر كنتُ أملكه بسبعين مليوناً، وقد ادعى آنذاك أنه سيستعمله للعلاج، وإلا ما كُنتُ بعته إياه... اعلم بأني قد اجتهدتُ كثيراً حتى تمكّنت من اصطياده في صحراء برج

باجي مختار!

-اللعنة... ولِمَ لمْ أفتّش في تلك البقعة من الأرض أنا أيضاً؟! يا لغبائي وحمقي الكبيرين... كيف لراعي غنم كهذا أن يسبقني في سعيي الحثيث؟ سوف أجتهد أكثر في الأيام المقبلة لأحققَ حُلم الثراء وإلا بقيتُ أملك مطعماً واحداً بدل المطعمين!

-ما هذا الذي تقوله بصوت خافت يا هذا... فأنا لم أسمعك جيداً على ما يبدو؟

-لا... لا شيء مهم... قلت فقط: ما رأيك بمائة مليون عداً ونقداً.. هل هو مبلغ معقول برأيك؟ ماذا قلتَ؟ أليس عرضاً مغرياً ولا يمكنُك تفويته أبداً؟ فأنت لن تجد عرضاً مثله ولو طُفت كل الدنيا من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها!

-ولِمَ غيّرتَ رأيَك هكذا فجأة؟ لقد أدهشتني...

-آه ماذا أقول لك... فأنا أيضاً عندي مريض يستغيثُ وحالتُه حرجةٌ، وليس هناك من علاج له سوى الثعلب... إنها امرأة يا أخي تصوّر لو كانت ابنتَك أو زوجتَك ألا تفعل مثلي؟ أو ربما أكثر!

-هاك قد عُدتَ إلى كلامي السابق، وعرفت أخيراً قيمة ثعلبي العزيز، أعتقد بأنك تاجر ماهر، ومُفاوض ممتاز، وأردت أن تحتال عليّ... لكن لا بأس فبما أنك ستستعمل الثعلب في إنقاذ حياة تلك المرأةِ المسكينةِ، فلا بأس بذلك، اتفقنا إذن... عُقدت الصفقة، غداً سآتيك بالثعلب على أن تعدني بأن تأتيني بالمائة مليون كاملة غير منقوصة، وستبطلُ الصفقةُ لو سوّلت لك نفسك خداعي أو العبث معي، واعلم بأني أفعل كل هذا وأضحي بثعلبي العزيز من أجل المرأة المسكينة، وليس من أجلك أنت.

-شكراً... شكراً لك على كل حال... غداً ستجدني في الانتظار في الموعد المحدد.

في اليوم التالي أتى ذلك الرجل إلى مطعم شريف وهو يحمل الثعلب الصغير بين ذراعيه، وما إن وصل حتى تهلّلَ وجهُ شريف فرحاً بذلك الحدث العظيم، شريف، الذي لم ينم ليلتَه سعادةً وبهجةً بتمكّنه أخيراً من تحقيقه حُلْم الثراء الفاحش، وكيف سيُصبح بين عشيةٍ وضُحاها يركلُ النقودَ

برجله أينما حلّ وارتحل... نعم سيشتري بيتاً في أحد الأحياء الراقية، وسيارة فارهة، بعد أن يستثمر ذلك المليار في ميدان الأكل والبلع، فالناس لم تتوقف يوماً عن الأكل والمضغ، إنه ميدان مربح جداً، وربما يلد ذلك المليارُ ملياراً آخر مثله، ويصبح بحوزته ملياران ولِمَ لا؟

ناوله الرجل الثعلبَ الصغيرَ من فصيلة الفَنَك النادرة الذي لا يوجد إلا في الصحراء الكبرى في بلاد المغرب العربي، كان شريف وفيّاً بوعده أيضاً فقد منحه من جانبه حقيبة النقود مملوءة عن آخرها، كل ورقة نقود داخلها تطلب من أختها الابتعادَ قليلاً من كَثرة الزحام الخانق! حملَها الرجل وخرج مسرعاً، ذهب كالبرق حتى من دون أن يلتفت وراءه، وفوراً قام بإخراج هاتفه لمحادثة أحدهم وكله سرور، وقال:

- هنيئاً... لقد نجحت الخطة وتمت المهمة بسلام يا سيد فوكس!

لم يسمع شريف ما تلفّظ به ذلك الرجل، فقد كان مشغولاً هو الآخر بإجراء مكالمة مهمة جداً مع السيد فوكس...

-ألو... ألو... السيد فوكس هل أنت بخير... دعني أُبشّرك بأني قد تمكّنت أخيراً من إلقاء القبض على الثعلب، وهو ينتظر هنا في مطعمي على أحرّ من الجمر، لكي تأتي وتأخذه، ولا تنسى بأن تحضر المليار معك يا صديقي!

-عن أي ثعلب تتحدث يا رجل وعن أي مليار؟! لقد ماتت زوجتي أيها الأحمق، أما ثعلبك ذاك فقم بطبخه وتناوله على العشاء بصحتك يا زميلي!... وأُقفل الخط في وجه شريف إلى الأبد...

قصة

القـدرُ أقـوى

عبثت الأيام بحياة سعيد، الرجل العجوز، لكنه لا يزال إلى آخر رَمق يُقاوم بكل ضراوة مصاريفَ المعيشة وقَسوةَ ظروف الحياة التي انهالت على رأسه وعلى أسرته الصغيرة، وهو في عز شيخوخته، ولا يتقاضى فيها إلا معاشاً ضئيلاً لا يكاد يكفي .. . حتى للأكل والدواء...

نعم... فزوجتُه الأولى كانت عاقراً، لكنه لم يشأْ أن يُطلّقها أو يتزوجُ عليها بامرأة أخرى؛ إذ كان الرجل وفيّاً لها راضياً بما كتبه الله له، ومسلّماً بالقضاء والقدر حتى أتى أمر الله بقبض روحها، وهي راضية كل الرضا عن زوجها العطوف الذي كان نِعم الزوجُ والرفيقُ.. في السراء كما في الضراء.

لكن الحياة تستمر، وسعيد الذي بلغ سنُّه مشارف الستين أو يزيد، تزوّج مرة أخرى من بنت الأربعين إلا قليلاً... نعم لقد تزوّج سعيد، وأنجبت له زوجتُه الجديدةُ بعد كل تلك السنين العجاف، بدل الطفل ثلاثة أطفال، حتى أن أحد أصدقائه القدامى عندما سمع بالخبر والبُشرى السارةِ

قام وزغرد فرحاً وغبطةً بتلك النعمة التي حازها صديقه سعيد، فضلاً من الله، ورزقاً عظيماً. قام سعيد بتربيةِ صغارِه وتعليمهم حتى بلغوا الجامعة، وها هو ذا أول العنقود ابنه الأكبر هشام، ينال بكل جدارةٍ واستحقاقٍ الشهادة الجامعية بدرجة مشرّفة ويأتي مسروراً يزفُّ الخبر السعيد لأمه وأبيه، وتسودُ البيتَ أجواءٌ من الفرحة العارمة في أمسية جميلة، حتى إن وجهي والديه أشرقا بالبهجة والحُبور كلآلئ، أنارا البيت السعيد، والدنيا في الخارج كلها ظلماء... ومن غياهب تلك الظلماء، جاءهم زائر في الليل، ها هو ذا عند عتبةِ الباب يطلب أن يوافيه سعيد فهو يحتاجه في أمر مهم للغاية... من يكون هذا الرجلُ يا تُرى؟ وما هذا الأمرُ المهمُّ الذي سيُخبر به سعيد؟ اكتشفت عائلة سعيد أنه لم يكن سوى عمران صاحب الدكان، ولكن ما الذي يريده صاحب الدكان هذا؟ وما هذا الأمر الجلل الذي جاء على إثره إلى بيتنا في هذه الساعة المتأخرة؟

-اسمع يا... سعيد جئت استعيد نقودي منك،

واعلم أنني منذ اليوم لن أمنحك شيئاً من دُكاني حتى تقوم بتسديد كل ما عليك من ديون متراكمة...
-أرجوك... أخفض صوتك قليلاً حتى لا يسمَعَك أهلُ بيتي رجاء... وليكُن ذلك، سأسددُ ديني عندما أقوم بقبض معاشي في المرة المقبلة، فقد سددت هذه المرة بدل الإيجار والكهرباء، ولن أستطيع موافاتك إلا بالقسط القليل من نقودك.
-لن أمهلك أكثر من الشهر المقبل... لا تقل لي إنني لم أحذرك!

كان عمران هذا ضخم الجثة، لا تكاد تعرف أنه ينتمي إلى صنف البشر عند النظر إليه من بعيد أو حتى من قريب، كأنه كرة كبيرة من اللحم ملفوفة بقطعة من القماش تدبّ فوق الأرض، ولكنه على الرُّغم من كل ذلك، وحركته البطيئة جداً، كان يسيطرُ على دواليب القرار في قريته الصغيرة، فهو يملك الدكان الوحيد هناك، ويصدر أحكامه كما يشاءُ، فقد ضربت الفاقةُ بكل قوتها على أهل القرية، وهو يملكُ كل السلطة، وأي سلطة؟! إنها سلطة الطعام، وإن سوّلت لك

نفسك أن لا تتبع تعليماته في كل شاردةٍ وواردةٍ فالويل كل الويل لك، فقد تجد نفسك تتضور جوعاً أنت وصغارُك، فقد سبقَ له وأن وبّخ أحدَهم لمجرد أنه شاهد ابنه يرتدي حذاء جديداً، وفي الوقت نفسه هو مدين له ببضع الدراهم!... إذ كان الأولى به أن يُسدّد الدينَ الذي عليه، وليس ابتياع حذاء جديد لابنه! لقد جُنّ جُنونُه في ذلك اليوم، ولا يريد سعيد أن يحدث معه ذلك أيضاً. سمع هشام كل ما دار من حديث بين أبيه وعمران في تلك الليلة، رغم أن والده حاول إخفاء الأمر عن عائلته، واعتصر قلبه ألماً بما يمرّ به والده العجوز الذي تجاوز سنه الثمانين سنةً، ولم يرحمه صاحب الدكان، وألم آخر فظيع هدّ قلبه الصغيرَ وهو عدم استطاعته فعل أي شيء لمساعدة والده، فقد تخرّج لتوّهِ من الجامعة، وسيمرُّ وقتُ طويلُ ربما قبل أن يجد الوظيفة التي تلائمه فيرفع الغبن والحرمان الذي تتخبط فيه عائلته... وها قد اتخذ هشام قراره والدموع تنهمر من عينيه:

-غداً سأخرج إلى الحقول للعمل في الفلاحة، فأنا

لم أعد أحتمل الظروف التي نمرّ بها وسأساعدك يا والدي...

كان هشام يظن أن والده سيفرح بالأمر ويشجعه على الإقدام على فعلته تلك، ويبارك تصرفه الصائب، لكن كل ذلك لم يحدث، فقد احمرّ وجه سعيد وانفجر في وجه ابنه وكله غضب:

-ماذا قلتَ يا ولد؟ هكذا إذن فأنت تريد أن تتوجه إلى الحقول كي تساعدني... ومن طلب مساعدتك أصلاً؟ هل هذا هو حلمُك الكبيرُ الذي ستحققه بعد قضائك كل تلك السنين في الدراسة؟ وأنا الذي قضيتُ كل تلك الفترة أتجرّع فيها الألم والمعاناة حتى أوصلك إلى ما أنت عليه؟ والآن تقول إنك ستغدو فلاحاً مثلي؟ لو لم تكن متعلماً فلا بأس بذلك، ولكنك حزت لتوّك الشهادةَ ولن أرضى بأن تُدمّر كل ما بنيتُه بيدي هاتين... أريدك يا بني أن ترفع رأس أبيك عالياً، بعد أن تمرّغ دهراً في التراب... أريدك يا بني أن تتحدى كل العالم، وتواجه كل الصعاب، وتُزيل كل المطبات التي قد تعترض طريقك، وتثبت للجميع أن ابن الفلاح

يمكنه أيضاً أن يحقق النجاح الباهر له ولبلاده، مثل الآخرين وربما أكثر ولما لا؟... ذلك هو قدرُك وهو أقوى مما يمكرون...

-ولكن يا أبي...

-لا أريدُ أن أسمعَ منك كلمةً واحدةً أخرى، وهاك مني هذه الألف دينار حتى تتوجه في صباح الغد إلى المدينة، وتبحث عن عمل لك هناك...
بعدما قضى ليلته في أرق كبير، ها هو ذا هشام يتوجه صوب المدينة لتحسس أخبار وظائف جديدة قد يحالفه الحظ وينال إحداها.

وهو في غمرة البحث عن الوظيفة وتحقيق حُلْمه المنشود، سمِع بالصدفة من أحدهم أن هناك مسابقة للتوظيف قد أعلنوا عنها في وزارة الخارجية، قبل أيام قليلة، فهم يحتاجون كاتباً في السفارة الجزائرية في أميركا... نعم سيقيمون مسابقة بأكملها لقبول كاتب واحد فقط!

عاد هشام إلى البيت خائباً منكسر الخاطر على عدم تحقيقه أي شيء يُذكَر بعد توجهه إلى

العاصمة، وصرفه الألف دينار، هكذا هباء منثوراً، فهو كان يظن أن المسابقة ستختار العشرات من المتقدمين لها، وليس مجرد شخص واحد فقط! إنه لمن سابع المستحيلات أن ينالَ هشام ذلك المنصبَ الرفيعَ فقد افترَض أنه حتى وإن كان أذكاهم جميعاً واجتاز المسابقة بسلام، فربما قد يتدخل أحدهم من الذين يملكون نفوذاً كبيراً، ويضع قريبه مكان هشام في قائمة الناجحين في الامتحان! أجل هكذا بكل بساطة! هذا دون أدنى شك، فنحن لا نعيش في عالم مثالي مثلما علّمونا في مدرجات الجامعة هناك... نعم العالم خارجاً لا يرحم بتاتًا.

لكن المفاجأة الكبيرة التي لم يكن يتوقّعها هشام هو موقف والده عندما علم بأمر تلك المسابقة...

-يا بني... أريدُك أن تصغي إلى والدك، وبأن لا تلتفت أبداً إلى آراء الآخرين التي سوف تهدم حياتك، ولن تنفعك في شيء مطلقاً... يا بُني قد يقولون إنك لست أهلاً بالذهاب إلى أميركا أو العمل في السفارة، فأنت مجرد ابن قرية معزولة مرمية في تلك الجبال وسط الأدغال، وستبقى

هناك إلى أن تصبح عجوزاً، وتموت في النهاية... لا لن يحدث ذلك لك... سوف تتقدم إلى الامتحان، وستنال المنصب بإذن الله.... صحيح ربما هم يعرفون وزيراً، أو جنرالاً، أو مدير شركة كبيرة قد يتوسط لهم، ولكن هل تعلم يا بُني من يعرفك أنت؟ نعم إنه الله... الله يعرفُك شخصياً وباسمك أيضاً، فهو خالقُك ويعرفُك أكثر من نفسك، وإن كتب لك شيئاً فلن يستطيع كل العالم أن يمنعك من تحقيقه، ومن الوصول إلى هدفك ولو فعلوا الأفاعيل...

بكى هشام لحظتها بكل حُرْقة وانهمرت من عيونه دموعٌ غزيرةٌ دافئةٌ وتأثر كثيراً بكلام أبيه والحنان الدافق الكبير الذي غمره به، والصادر من أعماق قلبه، وقال له:

- شكراً يا أبي...

ولم يستطع التلفظ بعدها بأي كلمة أخرى...

ولما أتى اليوم الموعود، يومُ المسابقة المشهود، ركب هشام الحافلةَ ونسائمُ الصباح الأولى تَلِج من

النافذة المفتوحة قليلاً ليستَنشق قليلاً من عَبَقِها ورُطوبَتها العذبةِ، وهو يَستَذْكرُ تلك اللحظاتِ الجميلةَ التي أمضاها برُفْقة والده سابقاً عندما كلّمه عن أحلامه، وتمنياته لولده بالنجاح، وبأن يصبح فخرَ عائلته.

وصل أخيراً إلى قاعة الامتحان، كانت مكتظةً عن آخرها، والزّحام شديدٌ داخلها تكادُ تختنق، فلم يعد هناك مجالٌ لتسرُّب الهواء العليل إلى داخلها، فهي تحمل في جوفها ألفاً من المتقدمين لاجتياز الامتحان، وربما يكونون قد فاقوا الألفين أو أكثر من يدري؟ ولأجل ماذا؟ كلّهم هناك من أجل الظَفْر بمنصب يتيمٍ واحدٍ فقط! يا للهول هل حقاً سيتمكّن هشام من انتزاع المنصبِ الرفيعِ مع كل هؤلاء؟! إنه ضربٌ من الخيال...

في مكان آخر، ومن خلف الستار، كان هناك شخصٌ ذا نفوذٍ كبيرٍ يُوصي بأن يغنم ابنه ذلك المنصبَ، فهو كسولٌ وغبيّ جداً، ولا يمكنه النجاح في تلك المسابقة حتماً...

- ألو... ألو... يرد عليه أحد القائمين على المسابقة... أعطني اسم ابنك فقط، ولا تقلق أبداً فأنا سأقوم بالباقي يا سيدي، وسيغدو ابنك هناك في أميركا يمرحُ في ملاهيها كما يشاء!

-شكراً... وأبلغني فوراً عند ظهور النتيجة، ريثما أجهز لابني جواز السفر حتى نسرع في عميلة انتقاله إلى أميركا.

وعاد هشام إلى البيت، وكلّه رضًا بما قدمه في المسابقة فلو أنصفوه حقّاً سيكون أول المتوّجين وسينالُ المنصبَ حتماً، فهو يعلم ما قدمه في ورقة الامتحان، فقد كانت تصبُّ كل الأسئلة في صالحه، وعرف كيف يجيب عنها بطريقة ماهرة ورهيبة... وبدأت بعدها رحلةُ الترقّب والانتظارِ فبعد عشرة أيام ستظهر النتائجُ الحاسمةُ، وسيظهر اسم سعيد الحظّ الذي سيُسافر للعمل في السفارة هناك في أميركا...

وأخيراً خرجت القائمة إلى العلن، وهاتف القائم عليها ذلك المدير النافذ بأن اسم ابنه فيها، لكن

المدير فاجأه بما لا يَخطرُ على بالٍ، فالذي خرج في القائمة ليس ابنَه، فتاريخُ الميلاد الذي ظهر مع الاسم لا يخُصّه، بل يخصُّ شخصاً آخر يحمل الاسم واللقب نفسه، لكنهم لا يعرفون بعضهما! يا للعجب من أين أتى هشام الآخر هذا؟! ويا لحظه الكبير! بل يا للصدفة!

- والآن ما العملُ؟ هل تستطيعُ أن تساعد ابني يا رجل؟ وهل بإمكانك أن تجد لنا حلاً يخلِّصُنا من هذه الورطةِ والمصيبةِ الكبيرةِ؟
- للأسف يا سيدي... أبداً... أبداً... فقد خرج اسم ذلك الشخص الذي يتشابه في اسمه مع ابنك في الأوراق الرسمية، وسلطتي لا تسمح لي بتغيير أي حرف منها... قدر الله وما شاء فعل... أعدك بأنني في المرة المقبلة لن يفوتني أمر تاريخ الميلاد، بل سأدقق أيضاً حتى في اسم أبيه وأمه أيضاً حتى لا أخطئ في حق ابنك مرة أخرى... اعذرني يا سيدي!

ولكن مَن هذا الفائزُ صاحبُ الحظِ الكبيرِ يا تُرى؟... نعم... كان ذلك الفائزُ هو هشام بن

سعيد... كان قدره.

عاد إلى البيت بالخبر السعيد، بعدما سمِعت كل القرية بإنجاز شِبْلهم العظيم الذي رفع رأس أبيه عالياً شامخاً بعد قهر السنين... بكى كل البيت... أمه وأبوه وإخوته... بل حتى القطة الصغيرة قد أحسّت بأن شيئاً ما قد طرأ على بيت سعيد، وأخذت تنظر إليهم في ذهول.

وعند فراغهم من كل ذلك، مسح سعيد دموعه، وقال لابنه: ألم أقل لك يا بُنيّ إن القدر أقوى..

قصة
طوكيو ليست بعيدة

يواصل الإنسان، ذلك الكائنُ العجيبُ، إبداء تذمُّرَه في كل مرّة، فعندما يكون بلا أولاد يتذمرُ، وعندما يُرزقُ بالأولاد كذلك يتذمرُ! خاصةً إذا لم يكن هؤلاء الأولاد موفّقين في دراستهم وحياتهم على ما يبدو.. ولكن....

بدأ كل شيء عندما أدرك والدا سليم أن ابنهم يعاني من اضطراب نقص التركيز، وذلك من فَرط الحركة، وأيقنا بأن ابنهم مختلف عن الأطفال الآخرين ولا يمكنه الذهاب بعيداً في حياته..

إنه سليم، الطفل ذو الملامح الغريبة بتصرفاته الطائشة، الطفل الذي كان مثاراً لسخرية زملائه في المدرسة؛ إذ كانوا ينعتونه بالأبله والمتخلف، وكانوا يتحاشون حتى النظر إليه، فما بالك بالحديث معه!

حتى المدرسون لم يسلم منهم سليم، فقد كانوا يُسمِعونه في كل مرة بأنه ليس سوى شخصٍ فاشل، ولا يُتقن عمل أي شيء، بل هو لا يُحسن التصرّف إلا في إفساد الأشياء!

أما عن النجاح فلا يمُكن للطفل التفكير أبداً في الوصول إليه أو بلوغه يوماً ما في حياته، كان يسمع الكلام الجارح، ويتعرّضُ للمعاملة القاسية من الجميع وزادت حالتُه سوءاً.

اعتقد والدا سليم بأن ابنهم سرعان ما سيتجاوز تلك المرحلة، وتمرّ الزوبعة بسلام، خاصة عندما يصبحُ مراهقاً ويباشرُ الدراسة في الثانوية مع الآخرين، فسيندمج بسرعة معهم بالتأكيد، ويصبح مثلهم... كان أملُهم كبيراً في ذلك، وفي تلاشي كل تلك الحركة التي تميّز ابنهم، فهو لا يبقى على حال، ولا يركّز معهم عندما يطلبون منه القيام بأبسط الأمور، هذا فضلاً عن إهماله الشديد في كل شيء، فهو بحقٍّ فوضى عارمةٌ تدُبُّ فوق الأرض، وتُبيدُ في طريقها الأخضرَ واليابسَ.

لكن ذلك لم يحدث، فحركةُ الطفل كانت تزيد مع مرور الوقت، والمشكلة بدأت في التضخم والتمدد، فقد بلغَ الثانوية بشِقّ الأنفس، وأخذت نتائجُه في التدهور حتى تسللَ القلقُ إلى والديه، ودبَّ في نفوسِهم الخوفُ على مستقبله المجهول

ومصيره الغامض.

وفوراً توجه الزوجان بابنهم إلى الطبيب؛ ليرى إن كان هناك علاج ما قد يُفيد ابنَهم قبل أن تتدهور حالتُه أكثر، وتؤول إلى ما لا يُحمد عقباه، وعندما قاموا بعرضه على الطبيب كان ردّه عليهم بأن حالة ابنِهم مُستعصِية جداً ولا سبيل إلى شفائه التام بتناول بعض العقاقير، ولكن حتى تأتي النتيجة كما يشتهون، نصحهم بإيجاد رياضة ليمارسها، حتى تُنْهِكَه فيُبطّئ ذلك الحركة عندما يكون قد تمكّن منه التعبُ والإرهاقُ.

سجّله أبوه إسماعيل في نادٍ رياضيّ لكرة القدم، وانتظر النتيجة الحاسمة، لكنه لم يمُرّ أسبوعٌ واحدٌ فقط حتى قام المدربُ بطرده، فهو لا يركز أبداً، ولا يستمع لتعليماته أبداً، ولا يصلح أصلاً لممارسة كرة القدم، أو أية رياضة جماعية أخرى! نعم فلم تكن تستهويه رياضة كرة القدم، بل لم تكن أبداً تُثير شَغَفَه مثل كثير من الشباب الآخرين الذين هم في مثل سنه.

انهار إسماعيل، ولم يستطع متابعة طريق البحث عن علاج لابنه، وأخذ شيئاً فشيئاً يتقبلُ الأمرَ الواقع، ويحاول التخفيف عن زوجته، ولكن هيهات فأسماء لم تسلّم بذلك الأمر، وكانت تحسّ بأن ابنها له مستقبلٌ زاهرٌ في مكان ما، ولم يجدوا بعد طريقاً إليه، حتى حدث ما لم يكن في الحسبان، فأثناء نُزهة قامت بها برفقة ابنها زاروا على إثرها أحد المسابح، شاهدت رغبة ابنها في السباحة، فسمحت له بذلك... فسبح وسبح وسبح أيضاً من دون توقف، ولو للحظة واحدة، لاسترجاع أنفاسه! تنهدت أمه لما رأت ذلك، وقالت في نفسها: الحمد لله فأخيراً وجدْتُ شغفَ ابني، وما يُحبُّ ممارسته... نعم سأقوم بتسجيله في نادي السباحة وفعلاً كان لها ما أرادت.

بدأ سليم مسيرته مع نادي السباحة في المدينة التي يُقيم بها، فلحسن حظّه كانت تتوفر على مسبح يؤدون فيه تدريباتهم بصفة يومية لمدة ساعتين من الزمن، وكان بفضل النشاط الكبير الذي يتمتع به يأتي في المقدمة أو في المرتبة الثانية

في أسوأ الأحوال...

نعم فقد وجد سليم شخصاً آمن به وبقدرته على تحقيق المستحيل، وبلوغ أعلى الدرجات، كان ذلك مدربُه في السباحة، فقد استطاع أن يرى في سليم ما لا يراه الآخرون فيه؛ إذ كان يُدرك ويؤمن بأن الرب عادل، ولن يخلق عبداً إلا وأودع فيه موهبة في شيء ما، وما على العبد إلا مهمة اكتشافها وتطويرها بالعمل الجاد، والمثابرة الكبيرة، والتركيز الشديد.

وهكذا رمى سليم بكل طاقته في سبيل إبراز موهبته الفذة في السباحة التي كانت غايةَ شغَفِه، وأراد أن ينتقم لنفسه من الأشخاص الذين نعتوه يوماً ما بالفاشل، لم يكن أحد يظنّ بأن القسوةَ والمعاملةَ الفظةَ التي كان يتعرّض لها سليم ستكون دافعَه إلى رفع التحدي والنجاح.

لكن دائماً يكون هناك مُزعجون يأتونَ في طريقِه، وكان عصام أحدهم...

-ها ها ها هل سمعتُم يا جماعة ماذا يقولُ هذا

المجنونُ؟ يقول إنه سوف يذهب إلى طوكيو! لعله يعتقد بأن طوكيو مجرد إسطبل يدخُله كل من هبّ ودبّ! لا لا لا فطوكيو ليست لأمثاله من الناس، لا مكان له هناك، بل هي لأشخاص مُتحضّرين وينحدرون من عائلات عريقة وطبقة راقية مثلي، ليس كهؤلاء الأوباش. سنرى من سيفوز بالبطولة الوطنية أيها الأحمق!

لم يُعر سليم لحديثه أدنى اهتمام، ودخل إلى المسبح كعادته، وكلّه عزمٌ وإصرارٌ على الكفاح في التدريبات لبلوغ هدفه المنشود، المرتبة الأولى في السباق الوطني، والتي ستؤهله مباشرة إلى خوض غمار بطولة الشباب في مدينة طوكيو، لكن زميله في النادي واصل استفزازه ونعتَه بالأُمِّي الجاهل الذي لا يعرف نطق كلمة بالإنجليزية، أو الفرنسية، وحتى أنه لا يتقن اللغة العربية لغته الأم! أكيد هو لن يذهب بعيداً...

ولكن....

كان إصرارُ سليم أقوى رغم كل الصعاب، لم يكن يتحدى زميله عصام في النادي أبداً... بل كان يتحدى والديه! نعم... لقد كان مُصرّاً بأن يُثبت لوالديه أنه ليس إنساناً فاشلاً، كما يظنون، بل هو كالأخرين تماماً، يملكُ قلباً وأحاسيسَ، وذكياً كذلك، لكنه كان يعاني من مشكلة صغيرة فقط، والدليلُ على ذلك هو براعتُه في مجاله أيّـما براعة... كانت السباحةُ شغفَه...

وعند البطولة الوطنية وضع سليم نُصبَ عينيه إرضاء والديه عنه، وقام بشقّ طريقه في الماء كالصاروخ، حتى أنه فاق كل منافسيه بدورة كاملة، واستطاع الفوز بالسباق بكل جدارةٍ واستحقاقٍ، ما لفت الأنظار إليه، وأصبح حديث الجميع!

براعة سليم ومهارته وإصراره... قادتَه إلى تحقيق المستحيل، متجاوزاً كل العقبات، غير مبالٍ بالسُّفهاء والمُتطفِّلين، مهتماً فقط بإسعاد والديه،

ورفع رأس مدربه الذي وثق بإمكانياته، فأصبحَ الحُلْم حقيقةً، وما هي إلا سويعات حتى ركب الطائرة، متوجهاً إلى طوكيو، وقام بسؤال المضيفة عن وقت الوصول فقالت له: طوكيو ليست بعيدة!

الفهرس

إهداء	3
المقدمة	5
قصة صفقة الفنك	7
قصة القدر أقوى	39
قصة طوكيو ليست بعيدة	53